قواعد في تدبر القرآن الكريم

وضوابط للفهم فيه

فَوَائِدُ فِي تَدَبُّرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

وَضَوَابِطُ لِلفَهْمِ فِيهِ

الشيخ د. مُحَمَّد الحُمُود النَّجْدِي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

موقع المؤلف
www.al-athary.net

لإعادة الطبع أو الطلب
ت: ٢٤٨٠٩٠٢٢ - ٩٧١٦٩٠٥٧ - فاكس: ٢٤٨٠٧٦٦٦
إيميل: alhomood1@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين..

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الأعراف: ٤٣.

أما بعد:

فقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ الشورى: ٥٢.

فالقرآن العظيم هو الروح والرحمة لهذه الأمة الإسلامية، وهو المنَّة الكبرى، التي امتن بها على عباده، والنّعمة العظمى في الدنيا، المتصلة بخير الآخرة، لا تفنى عجائبُه، ولا تعدّ ولا تُحْصَى معانِيهِ وفوائدُه، فهو كلامُ اللهِ اللطيف الخبيرِ، العليم الحكيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

ولهذا حثنا اللهُ سبحانَهُ على قراءته وسماعه، وفهمه وتدبره، ففي قراءة القرآن وفهمه وتدبُّره، والعملِ بِهِ، هدايةٌ وصلاحٌ، وسعادة ونجاة، وشفاءٌ للفردِ وللمجتمع والأمة جميعا، من جميع أمراضهم الحسية والمعنوية، وتلبيةٌ لحاجاتِهم الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الإسراء: ٨٢.

والله عزَّ وجل هو الذي خَلق عباده، وهو أعلم بما يصلحهم وينفعهم، وما يفسدهم ويضرهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤.

أي: كيف لا يعلم أحوالهم ؟! وهو اللطيف بهم، الخبير بأحوالهم وأعمالهم، والإنسان هو الإنسان، حيثما كان.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الإسراء: ٩ ــ ١٠.

فقوله تعالى ذكره: « إنَّ هذا القرآن الذي أنـزلناه على نبينا محمد ﷺ، يُرشد ويُسدّد من اهتدى به ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾

يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السُّبل، وذلك دينُ الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام، فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قَصْد السبيل، التي ضلّ عنها سائر أهل الملل المكذبين به». (الطبري).

لقد أدرك الصّحابةُ الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومَن سار على دربهم من سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى هذا الشرف العظيم، الذي امتنّ الله تعالى به عليهم، بتنزِيل القرآن الكريم على خير الأنام، نبينا ورسولنا وحبيبنا محمد ﷺ، وهو بين أظهرهم، فأقبلوا عليه يتلقّونه منه ويسمعونه ويتعلّمونه، ثم يتلونه آناءَ الليل وأطراف النهار، وجعلوا منه غذاءً لأرواحهم، وقرَّة لأعينهم، وطمأنينة لقلوبهم، تعلّموا حلاله وحرامه، وامتثلوا أحْكامه، وأقاموا حُدوده، وطبَّقوا شرائعه، فكان شفاءً لأرواحهم وأجسادهم، وزَكتْ به نفوسُهم، وسَمَتْ أخلاقهم، وصَلُحَتْ سرائرهم، وأعلى الله تعالى به شأنهم، واستحقّوا أنْ يكونوا أهل القرآن الكريم؛ وهم: «أهل الله وخاصته».

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ اللهَ تعالى يَرفعُ بهذا الكتاب أقْواماً، ويَضعُ به آخرين» . رواه مسلم .

وقد جعل الله تعالى القرآن الكريم، معجزةً دائمةً للرسول ﷺ: وحجةً لأمته، على مدى الأيام، فقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٣-٢٤.

وقد تكفَّل الله تعالى بحفظ كتابه العظيم: كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩.

فلا يستطيع جبَّارٌ أو مُلحد أن يبدِّله، أو يزيد فيه أو ينقص منه؛ وكما جاء في الحديث: «وأنزلتُ عليك كتابًا، لا يَغْسله الماء». رواه مسلم.

ومن فضل الله العظيم علينا: أنَّ القرآن الكريم، كلام الله تعالى الذي أنزله على خاتم رسله، محمد بن عبد الله ﷺ، قد أنزله الله بلغةِ العرب، لسانِ النبي محمد ﷺ وقومه، فكان

تشريفاً لجميع العرب؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ الزخرف: ٤٤.

وحُجة عليهم؛ لأنه بلسانهم الذي يتكلّمون به، ويفهمونه، ويَسْهل عليهم تدبره.

ومن الأسباب الداعية إلى تدبّر القرآن: أمْرُ الله تعالى لنا بذلك ؛ بأنْ نقفَ مع آياته الكريمة، وأنْ نفهمها ونتدبّرها، وأنه ما أنزل القرآن الكريم إلاّ من أجْل أن يُتأمل ويتدبر، ليعمل به ويمتثل، كما قال سبحانه وتعالى مُقرّراً أنه قد أنزله مباركًا ليدبروا آياته، وليتذكر أولو العقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ص: ٢٩.

فهذه «اللام» في ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ و﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ لام الغاية والحِكمة، فمن لم يأخذ حظَّه مَن تدبّر القرآن العظيم، لم يأخذ حظّه من بركته وهدايته، فعلى قَدْر سَعْيك في الفَهم والتَّدبُّر والتأمل، يكون حظُّك من بَرَكة هذا الكتاب العظيم، وعلمه وفضله، وهدايته ونُوره.

وقد وَصَفَ اللهُ جل جلاله القرآن الكريم في مواضع

بالبركة، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ الأنعام:٩٢.

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنَّ هذا القرآن مبارك، أكّده في مواضع متعددة من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ الأنبياء:٥٠.

أي: هذا القرآن العظيم ذكر مبارك، أي: كثير البركات والخيرات؛ لأنَّ فيه خير الدنيا والآخرة، ثم وبَّخ من ينكرونه بقوله: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أفأنتم أيها القوم لهذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد منكرون، وتقولون هو ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾. الانبياء: ٥

وكقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأنعام: ١٥٥.

وقوله فيها أيضا قبله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الأنعام: ٩٢.

والبركة: هي النَّماءُ والزيادة، والثبات والدّوام، فقرّر بهذه الكلمة نَعْتينِ عظيمين للكتاب العزيز:

وفْرة عطائه وكثرته.

دوام نفعه وتجدّده واستمراره.

قال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ الكهف: ١٠٩.

فنرجو الله تعالى السميع القريب المُجيب، أنْ تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك، بتوفيقٍ منه تعالى لنا لتلاوة آياته وتدبرها، والعمل بما فيها من الأحكام ؛ والحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمكارم والآداب، امتثالاً واجتناباً، إنه سميع الدعاء.

* ولذا فقد حثّ الله سبحانه على تدبّر كتابه: لاستخراج ما فيه من خيرٍ متجدّد، لا يزول ولا يَحول، ولا يَغِيض ولا ينقص، فهو لا يَصْلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وعصرٍ ومصرٍ فحسب، بل هو يُصلِح كلّ زمان ومكان، وفرد ومجتمع، ويقوّمه ويقيمه على سواء الصراط، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ الإسراء: ٩.

وقد يسر الله حفظ وتدبّر وتلاوة كتابه للناس: قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ القمر: ٢٢.

قال السُّدي: يَسَّرنا تلاوته على الألسن.

وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أنَّ الله يسّره على لسان الآدميين، ما اسْتطاع أحدٌ من الخَلق أنْ يتكلم بكلام الله عز وجل.

فالله تعالى سهَّله لهم في الحِفظ والقراءة، فيمكنهم حفظه بسهولةٍ ويسر، ولم يكن شيءٌ من كتب الله تعالى يحفظ عن ظهر القلب، غير القرآن.

وأيضا سهّله لهم للاتعاظ والتذكّر به، حيث أتى فيه بكل حكمةٍ وموعظة وعلم ورشاد.

وجعله بحيث يعلق بالقلوب ويستلذ بسماعه، ولا يسأم من سمعه وفهمه، ولا يقول: قد سمعته فلا أسمعه، بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلما.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي: هل من متذكرٍ بهذا

القرآن، الذي قد يسّر اللهُ حفظه ومعناه ؟

فسهل الله لنا لفظه، ويسر معناه، لمن أراده، ليتذكر الناس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ص: ٢٩.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ مريم: ٩٧.

يعني بيّناه بلسانك العربي، وجعلناه سَهْلاً على مَن تدبّره وتأمّله.

وقيل: أنزلناه عليك بلسان العرب، ليسهل عليهم فهمه، ولتبشِّر به المتقين، وتنذر به قوما لداًّ، واللّد جمع الألد، وهو شديدُ الخُصومة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ البقرة: ٢٠٤.

* وقد شدَّد الله تعالى النَّكير على المُعرضين عن تدبر كتابه الكريم، والتفكّر في آياته المباركة، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ النساء: ٨٢.

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى آمراً لهم بتدبر القرآن، ناهياً

لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المُحْكمة، وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه، ولا اضطراب ولا تعارض، لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حقٌّ من حق، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لو كان مُفتعلاً مخْتلقاً، كما يقوله مَن يقول من جهلة المشركين، والمنافقين في بواطنهم، لوجدوا فيه اختلافاً، أي: اضطراباً وتضاداً كثيراً، وهذا سالمٌ من الاختلاف، فهو من عند الله». انتهى.

وقال عزّ من قائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ محمد: ٢٤.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله، التي يَعظهم بها في آي القرآن، الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكَّرون في حُججه التي بيّنها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأَ ما هم عليه مقيمون ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ يقول: أم أقفلَ الله على قلوبهم؟ فلا يعقلون ما أنزلَ اللهُ في كتابه من المواعظ والعبر؟» انتهى.

وقال عز وجل: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ المؤمنون: ٦٦- ٦٨ .

يقول تعالى ذكره: أفلم يتدبر هؤلاء المشركون تنزيل الله وكلامه، فيعلموا ما فيه من العِبر، ويعرفوا حُجج الله التي احتجّ بها عليهم فيه ؟ ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أم جاءهم ما لم يأتِ من قبلهم من أسلافهم، فاسْتكبروا عن ذلك وأعرضوا، فقد جاءت الرسل من قبلهم، وأنزلت معهم الكتب.

فالتفكر والتدبر والوقوف مع الآيات وتأملها، أمرٌ دعتْ إليه نصوص متظاهرة، ولأجله أنزل القرآن العظيم، ونهتْ عن الإعراض عنه، والانصراف لغيره.

قال الحسن رحمه الله: «نزلَ القرآن ليتدبر، ويعمل به».

- وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في المدارج: «فليس شيءٌ أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته: مِنْ تدبّر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته،

فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتضع في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطّد أركانه، وتُرِيه صُورة الدنيا والآخرة، والجنّة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله ؛ وما يُحبّه وما يُبغضه، وصراطه المُوصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها.

وتعرّفه النَّفسَ وصفاتها، ومُفسدات الأعْمال ومُصحّحاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم وسِيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخَلْق؛ واجْتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة: تُعرّفه الربّ المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتُعرّفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان،

والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب، بعد الوصول إليه». انتهى.

- وقال رحمه الله أيضا في كتابه: مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧): «فتبارك الذي جعل كلامه حياةً للقلوب، وشفاءً لما في الصدور.

وبالجملة: فلا شيءَ أنفع للقلب ؛ مِنْ قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والانابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشُّكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله ؛ وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو عَلِم الناسُ ما في قراءة القرآن بالتدبر ؛ لاشتغلوا بها عن كلّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكرٍ حتى مرّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائةَ مرة ولو ليلة.

فقراءة آيةٍ بتفكرٍ وتفهم ؛ خيرٌ من قراءة ختمة بغير تدبرٍ وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق

حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادة السلف ؛ يردّد أحدهم الآية إلى الصباح.

- وقد ثبت عن النبي ﷺ: أنه قام بآيةٍ يردّدها حتى الصباح، وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المائدة: ١١٨.

فقراءة القرآن بالتفكر؛ هي أصلُ صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود: لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشِّعْر، ولا تنثروه نثر الدَّقل، وقِفُوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب، لا يكن همُّ أحدُكم آخر السورة.

وروى أبو أيوب عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة ؛ إني اقرأ القرآن في ثلاث. قال: لأنْ اقرأ سورةً من القرآن في ليلة، فأتدبَّرها وأرتلها ؛ أحب إليَّ ؛ من أنْ اقرأ القرآن كما تقرأ.

- قال: والتفكر في القرآن نوعان: تفكرٌ فيه ليقع على مُراد الرب تعالى منه.

وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكّر فيه.

فالأول: تفكرٌ في الدّليل القرآني.

والثاني: تفكرٌ في الدليل العَياني.

الأول: ففكرٌ في آياته المسموعة.

والثاني: تفكّر في آياته المشهودة.

ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبّر ويتفكر فيه، ويعمل به، لا لمُجرد تلاوته، مع الإعراض عنه؟!

قال الحسن البصري: أُنْزل القرآن ليُعمل به، فاتّخذُوا تلاوته عملاً.

وقال في (١/ ٢٠٤):

وإذا تأمَّلت ما دَعَى الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه؛ أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى، وبوَحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته، ورحمته وإحسانه، وبرّه ولطفه، وعدله ورضاه وغضبه، وثوابه وعقابه، فبهذا تعرَّف إلى عباده.

وندبهم إلى التفكر في آياته – أي الكونية – [1] ونذكر لذلك

---

١ – أي : التفكر في الكون ، في خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة ، والنظر في خلق الإنسان وما هو عليه من الصفات ، فإن ذلك داعٍ قوي للإيمان بالله تعالى ، لما في هذه المخلوقات من عظمة الخلق ، الدالة على عظمة خالقها وقدرتهً ، وما فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب ، الدال على سعة علم الله ، ولطفه وكمال حكمته ، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى ...

أمثلة ؛ مما ذكرها الله سبحانه في كتابه، يُستدل بها على غيرها فمن ذلك:

خلق الإنسان: وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه، والنظر في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ الطارق: ٥.

وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الذاريات: ٢١.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ الحج: ٥.

* وقد جمع الله سبحانه وتعالى في القرآن العظيم أحكام كلّ شيء، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا

لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ النحل: ٨٩.

فقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقد بيّن لنا في هذا القرآن كلَّ علم، وكلَّ شيء.

وقال مجاهد: كلُّ حلالٍ وحرام.

وقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعمّ وأشمل.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ النساء: ١١٣.

- قال القفّال رحمه الله: هذه الآية تحتمل وجهين:

أحدهما: أنْ يكون المراد ما يتعلق بالدّين، كما قال: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾ الشورى: ٥٢، وعلى هذا الوجه، تقدير الآية: أنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وأطلعك على أسرارهما، وأوقفك على حقائقهما، مع أنك ما كنت قبل ذلك عالماً بشيءٍ منهما، فكذلك يفعل بك في مستأنف أيامك، لا يقدر أحدٌ من المنافقين على إضلالك وإزْلالك.

الوجه الثاني: أنْ يكون المراد: وعلّمك ما لم تكن تعلم من

أخبار الأولين، فكذلك يعلمك من حيل المنافقين ووجوه كيدهم، ما تقدر به على الاحتراز عن وجوه كيدهم ومكرهم. ثم قال: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ وهذا من أعظم الدلائل، على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب . (التفسير الكبير).

* ولَمَّا كان كثيرٌ من المسلمين قد أعرضوا عن القرآن فهمًا وتدبرًا، وعلماً وعملاً، وكان كثير ممَّن يقرؤه لا يعرف كيف يتدبَّره ؟! ولا كيف يفهمُه ؟! على النحو الصحيح، وعملاً بقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات: ٥٥.

فإنني أحببتُ أنْ أجمعَ كلماتٍ مذكّرة، وقواعد مهمة، لفهم لكتاب الله عزّ وجل، وكيفية فهمه وتدبره، تُساعد على تدبر القرآن الكريم، وفهمه الفهم السليم، أسأل الله أنْ ينفع بها طلاب العلم جميعا، المتعلمين منهم والمعلمين، إنه سميعُ مجيب الدعاء.

تمهيـــــدٌ

القواعد: جَمعُ قاعدة، وقَواعِدُ الْبَيتِ: أَسَاسُهُ، وَفي التَّنْزِيل: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٧.

وفيه: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ النحل: ٢٦.

وعلى هذا: فالقاعدة: الأصلُ الذي تنبني عليه المسائلُ، والفروع.

و«التدبر»: أصلُ هذه الكلمة اللغوي، هو: آخرُ الشيء وخَلْفَه؛ خلاف قُبُله.

ويقال: دَبَّرَ الأَمْرَ وتَدَبَّرَه: نَظَر في عاقِبَه، واسْتَدْبَرَه: رَأَى في عاقِبتِه، ما لَمْ يَرَ في صَدْرِه.

قال البغوي: «التدبر: هو النظر في آخر الأمر، ودُبُر كل شيء آخره».

أما اصطلاحاً: فالتدّبر: هو تأمُّل الآيات القرآنية، للاهتداء بما دلّت عليه؛ علماً وعملاً؛ وحِكماً وأحكاماً.

* الفرق بين التدبر والتفسير:

بين التدبر والتفسير، فرقٌ من جهة المعنى.

فالتدبر قد مرّ التعريف به.

أما التفسير: فإنَّ مادة التفسير تدور على: بيان شيءٍ وإيضاحه، يقال: فَسَر الشيءَ يفسرُه، بالكَسر، ويفْسُرُه بالضَّمِّ، فَسْراً وفَسَّرَهُ: أبانه، والتَّفْسيرُ مثْلُهُ، والفَسْرُ: كَشْفُ المُغَطّى، والتَّفْسير كَشف المُراد عَنِ اللَّفْظِ المُشْكل.

وبهذا يتبين أنّ دائرة التدبر أوسع من التفسير، من جهة أن التدبّر هو إعمال النظر في مآلات الألفاظ والمعاني.

قال الحسن البصري: العلم عِلْمان: علمٌ في القلب، فذاك العلم النافع، وعلمٌ على اللسان، فتلك حجّة الله على خلقه.

ففهم القرآن إذن نوعان: النوع الأول: فهمٌ علمي معرفي، والنوع الثاني: فهمٌ قلبي إيماني.

فالنوع الأول: يدخل فيه تفسير معاني الغريب، والعلم بمعاني الآيات، واستنباط الأحكام، والحلال والحرام، وأنواع الدلالات، وأهل العلم يغترفون من علومه، على

قَدر ما آتاهم الله تعالى من العلم والفهم في كتابه، كما قال تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ الرعد: ١٧.

والنوع الثاني: هو الفهم الإيماني القلبي، الذي ينتج عن تأملِ قارئ القرآن لما يمرُّ به من آياتٍ كريمة، يعرف معانيها، ويفهم دلالاتها، فيتوقف عندها متأملاً ؛ متفكراً متدبراً، يُحرّك بها قلبه، ويَعْرض عليها نفسه وعلمه وعمله، فإنْ كان من أهل الخير والصلاح والاستقامة، حَمِد الله على ذلك، وإنْ لم يكن من أهلها، حاسب نفسه، وتاب واستغفر واسْتعتب.

والفهم الثاني هو الغاية، والأول إنما هو وسيلة له.

قَوَاعدُ تدبّر القُرآن

والآن إلى بيان القواعد:

القاعدة الأولى:

الفهم للقرآن أولاً، فلا بدّ لمن أراد تدبر القرآن من فهمه أولاً، والنظر في معناه، وما تدلّ عليه الآيات، من كلام أهل العلم والإيمان، وقراءة ما كتبوا في تفسير القرآن الكريم، فلا يأتي التدبر دون فهم المعاني ؟ ومعرفة الألفاظ العربية ومدلولاتها ؟! فهذا مما لا يُخالف فيه أحدٌ مِن أهل العلم ؟!

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في فتاويه: « وتدبّر الكلام بدون فهم معانيه، لا يُمْكن ؟!» . فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٣١-٣٣٢).

وقال أيضا رحمه الله في مقدمة أصول التفسير: « يجب أنْ يُعْلم أنّ النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن، كما بيَّن لهم ألفاظه، كقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ سورة النحل: ٤٤، يتناول هذا وهذا ».

- ويقول الإمام الزَّركشي رحمه الله تعالى: « التفسير علمٌ

يُفهَم به كتاب الله المنزَّل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ » . البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣).

- وقال أيضاً: «ينقسم القرآن العظيم إلى: ما هو بيِّنٌ بنفسه؛ بلفظ لا يحتاج إلى بيانٍ منه، ولا مِنْ غيره، وهو كثيرٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ الآية، التوبة: ١١٢. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾ الآية، الأحزاب: ٣٥.

والثاني: ككثير من أحْكام الطهارة، والصَّلاة، والزكاة، والصَّيام، والحجّ، والمعاملات والأنكحة، والجنايات، وغير ذلك كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ الأنعام: ١٤١، ولم يَذكر كيفية الزكاة، ولا نِصابها ولا أوْقاصها، ولا شروطها ولا أحوالها، ولا مَنْ تجب عليه ممن لا تجب عليه، وكذا لم يُبيّن عدد الصلاة ولا أوقاتها ...».

* حرمة القول في القرآن بالرأي :

فقد صحّ عن النبي ﷺ : « مَنْ قَالَ فِي القُرآنِ بِرأيِهِ ، فَلْيَتَبوأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » (١).

---

(١) الحديث صحيح بطرقه .

فالطريق الأول : أخرجه النسائي في « فضائل القرآن» (١٠٩/ ١١٠) ، والترمذي (٢٩٥١) ، وأحمد في (٢٠٦٩ ، ٢٤٢٩ ، ٢٩٧٦ ، ٣٠٢٥) ، والطبري في تفسيره (١/ ص ٧١، ٧٢) ، والطحاوي في « المشكل» (١/ ١٦٧- ١٦) ، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣٩٢) ، والخطيب في « الفقه والمتفقه» (١/ ٥٧) ، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٥٧-٢٥٨) وفي « تفسيره « (١/ ٣٤- ٣٥) والبيهقي في الشعب (٢٢٧٥-٢٢٧٦) من طرق عن عبد الأعلى بن عامر الثَّعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً ... فذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن . وكذا قال البغوي .

وفيه : عبد الأعلى الثعلبي ؛ قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه : ضعيف الحديث .

وقال أبو زُرعة : ضعيف الحديث ، ربما رفع الحديث وربما وقفه .

وقال النَّسَائِيّ : لَيْسَ بالقوي ويكتب حديثه .

وقد أورد الشيخ الألباني الحديث في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٧٨٣) ، وأشار الشيخ رحمه الله؛ إلى أنه لم يجد للحديث شاهداً .

لكن للحديث شاهد يصح به - والحمد لله رب العالمين - فقد رواه ابن حبان في كتابه الثقات (١٣٩١٣) عن عبد الله بن شيبة الصَّغاني عن أبى عاصم النبيل ثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : « مَن قال في القرآن برأيه ؛ فليتبّوأ مقعده من النّار» .

قلت : وهذا إسنادٌ رجاله ثقاتٌ معروفون ؛ غير عبد الله بن شيبة الصغاني ؛ فقد وثقه ابن حبان؛ وتوثيقه هنا من التوثيق المقبول ؛ لأنه عرف عبد الله بن شيبة الصغاني ؛ لكونه شيخ شيخه محمد بن المنذر ؛ فهو في هذه الحالة إنما يوثقه على معرفة منه به ، أو بواسطة شيوخه كما هو ظاهر .

وكونه رُوي موقوفاً ؛ عند ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥١٢) عن وكيع عن عبد الأعلى فوقفه؛ لا يضره ذلك ؛ لأنه على فرض كونه موقوفا ؛ فهو مما لا يقال بالرأي ؛ فهو في حُكم المرفوع ؛ ولله الحمد والمنة .

والمقصود من الحديث : التحذير من تفسير القرآن بغير علم ؛ وترهيب لبعض المتعالمين وغيرهم؛ من التَّسرع بتفسير كتاب الله تعالى بغير معرفة بأقوال أهل التفسير؛ مما كُتب ونقل عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ؛ في كتب التفسير المعتمدة .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعليقاً على الحديث: «يعني أخطأ في فعله بقيله في رأيه ؛ وإنْ وافق قيلُه ذلك عين الصواب عند الله ؛ لأنَّ قيله فيه برأيه ؛ ليس بقيل عالمٍ أنّ الذي قال فيه من قولٍ حقٌ وصواب ؛ فهو قائل على الله ما لا يعلم ؛ آثمٌ بفعله ما قد نُهي عنه ؛ وحظر عليه».

وقد روي قبل ذلك : عن خليفة رسول الله ﷺ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ : « أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي ، وأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي ، إِذَا قُلْتُ فِي الْقُرْآنِ مَا لا أَعْلَمُ !» .

– وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « فمنْ قال في القرآن برأيه ، فقد تكلّف ما لا علم له به ، وسلك غير ما أُمِر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر ؛ لكان قد أخطأ ،

لأنه لم يأتِ الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس على جهلٍ فهو في النار ، وإنْ وافق حُكمه الصواب». مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧١) .

فهذا الباب جاء فيه الوعيد الشديد ؛ على من تجرَّأ في القول على الله وكتابه بلا علم ؛ وفي سورة الأعراف يأمر الله تعالى فيها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول للناس : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف : ٣٣ .

فهذه الآية جمعتْ أصول المحرّمات في القرآن الكريم؛ وابتدأ الله تعالى فيها بالأسهل ثم الأشد ؛ ثم الأخطر والأعظم من ذلك؛ وهو القول على الله بغير علم؛ لأنّ الشرك بالله تعالى؛ هو فردٌ من أفراد القول على الله بغير علم ؛ فالشرك كذبٌ ، ونسبة شيء إلى الله تعالى بغير برهان .

- وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء : ٣٦.

عن قتادة قال : لا تقلْ رأيتُ ولم ترَ ، وسمعتُ ولم تسمعْ ، وعلمتُ ولم تعلم . (الطبري)

- وقال الله تعالى :﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ النحل : ١١٦ .

- وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ ﴾ يونس : ٥٩-٦٠ .

- وقال تعالى : ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾ الشورى : ٢١ .

- وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ النساء : ١١٥ .

فالحاصل : أنّ هذه الآيات ؛ فيها بيان عقوبات مغلظة ؛ ومحرمات كبيرة ؛ للذي يعتمد على فهمه الخاص ؛ واستنباطه بالرأي المجرد الذي لا يستند إلى أصول شرعية ، فهذا ولا شك طريق للشطط والغلط ؛ والوقوع في الزيغ والضلال والإضْلال ، والمفسرون لكتاب الله بغير علم ؛ كلهم داخلون في الوعيد المتقدّم .

وهذا المعنى ؛ هو المقصود في الحديث السابق ؛ الذي فيه حُرمة التفسير بالرأي المذموم ، وجاء النهي عنه في قوله : «مَنْ قال في القرآن برأيه – وفي رواية : من غير علمٍ – فليتبوأ مقعده من النار» .

* فإنْ قال قائلٌ: فما أحسن طرق التفسير ؟

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٣) في الجواب عد ذلك: «إنَّ أصحّ الطرق في ذلك: أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِل في مكان، فإنه قد فُسِّر في موضع آخر.

فإنْ أعْياك ذلك، فعليك بالسُّنة، فإنها شارحةٌ للقرآن

وموضّحةٌ له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: كل ما حَكم به رسولُ الله ﷺ ؛ فهو مما فهمه من القرآن . قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ سورة النساء: ١٠٥ .

وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة النحل: ٤٤ .

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ سورة النحل: ٦٤ .

ولهذا قال رسول الله ﷺ: « ألا إنِّي أوتيتُ القُرآنَ، ومثلَه معه» . (رواه أحمد وأبو داود) . يعني: السُّنة.

والسُّنة أيضًا: تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن ؛ إلا أنها لا تُتلى كما يُتلى القرآن، وقد استدلّ الإمام الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة ؛ على ذلك بأدلةٍ كثيرة، ليس هذا موضع ذلك.

والغرض: أنك تطلب تفسيرَ القرآن منه، فإنْ لم تجدْه فمن السُّنة.

وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدْرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال ؛ التي اختصُّوا بها، ولما لهم من الفهم التَّام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما عُلماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري:.. عن مسروق قال: قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « والذي لا إله غيرُه، ما نزلتْ آيةٌ من كتاب الله، إلا وأنا أعلمُ فيمن نَزَلت، وأينَ نَزلت، ولو أعلمُ مكانَ أحدٍ أعلمُ بكتاب الله مني، تناله المَطَايا، لأتيتُه ».

وعن أبي وائل عن ابن مسعود أيضاً قال: كان الرجل منَّا إذا تعلَّم عشرَ آياتٍ، لم يُجاوزهن حتى يَعْرف مَعَانيهن، والعمل بهن.

ومنهم الحَبْر البَحْر: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ابن عمّ رسول الله ﷺ، وتُرجمان القرآن، ببركة دعاء رسول الله ﷺ له،

حيث قال: «اللهم فقِّهه في الدِّينِ، وعلّمه التأويل». متفق عليه.

وروى ابن جرير: .. عن مسروق قال: قال عبد الله يعني ابن مسعود: « نِعمَ ترجمان القرآن ابن عباس».

وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاثٍ وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كَسَبه من العلوم بعد ابن مسعود؟.

وقال الأعمش عن أبي وائل: اسْتَخلَف عليٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة - وفي رواية: سورة النور - ففسرها تفسيرًا ؛ لو سمعته الروم والترك والديلم ؛ لأسْلموا.

وكما جاء في حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما سأله سائل، فقال له: «هل خصَّكم رسولُ الله ﷺ بشيء ؟» - أي: أنتم وأهل بيته - فقال: « لا والذي برأ النَّسَمة، وفلقَ الحبَّة، ما خصَّنا رسول الله ﷺ بشيءٍ، إلا ما في هذه الصَّحيفة، وأخْرجها ؛ فإذا فيها أسْنان الإبل، وفهماً في كتابِ اللهِ، يُؤْتيه الله مَن يشاء». متفق عليه.

وكذلك ما ورد عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأُبَي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيرهم. ولا يزال هذا الفهم في الأمة موجوداً، ما بقي القرآن والإيمان.

- قال شيخ الإسلام: إذا لم تجدْ التفسير في القرآن، ولا في السُّنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثيرٌ من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير، كما قال عن (نفسه): عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاثَ عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أُوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها.

وروى الترمذي: عن قتادة قال: ما في القرآن آية، إلا وقد سمعتُ فيها شيئًا.

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم، ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية، فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علمَ عنده اختلافًا، فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك؟

فإنَّ منهم من يعبّر عن الشيء بلازمه أو نظيره، ومنهم من ينصّ على الشيء بعينه، والكلُّ بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطّن اللبيب لذلك، والله الهادي..». انتهى بتصرفٍ وزيادة يسيرة.

ففهمُ آيات القرآن: وَفْق تفسير السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وأتباعهم، لا مَحِيد عنه، لمَن أراد أن يفهم عن اللهِ سبحانه وتعالى كلامه، فإنَّ هؤلاء عاصروا التنزيل، وكانوا أعلمَ الناس بكلام العرب، وشاهدوا كيفية تطبيق القرآن والعمل به.

❖ تنبيهٌ مهم: لا يجوز الخروج عن منهج السلف في فهم القرآن الكريم:

فمنهجهم ـ في جملته ـ معصومٌ عن الخطأ، وإذا أجمعوا على تفسير فلا يكون الصواب في خلافه، ويبقى جهد من بعدهم في التأمل فيه، وتنويع الأمثلة التي تقاس عليه، أو تدخل تحته.

لحديث النبي ﷺ: «لا تَجْتمعُ أُمَّتي على ضَلالة». رواه ابن ماجة والطبراني وغيرهما.

ومعناه: أنَّ أمة النبي ﷺ التي آمنتْ به، لا تجتمع وتتفق على حكمٍ شرعي، ثم يكون ذلك الحكم ضلالة ؛ بل إذا اجتمعتً على حكم ؛ فإنّ اجتماعها عليه دليل على أنه حقٌّ، فهي لا تجتمع ولا تتفق على ضلالة؛ بل على الحق.

قال السِّندي في شرحه: قوله: « إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِع على ضَلَالَة» أَيْ: الكُفْر، أَو الفِسْق، أَو الخَطَأ في الاجْتِهاد ...اهـ.

وليس المراد بذلك أفراد الألفاظ التي نُقلت عنهم، فقد تختلف فيها الروايات، بل المقصود منهجهم وطريقتهم، فمن عدل عنها فقد أخطأ بلا ريب؛ لأنَّ إحداث طريقة في التفسير تخالف طريقتهم، هو طعنٌ في علمهم، وهذا ضلال مبين.

– وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: « فإنَّ الصحابة والتابعين والأئمة، إذا كان لهم في تفسيرِ الآية قولٌ، وجاء قومٌ فسَّروا الآية بقولٍ آخر، لأجل مذهبٍ اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة ؛ والتابعين لهم بإحْسان، صاروا مُشاركين للمعتزلة؛ وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا ؟!

وفي الجملة: مَنْ عَدَل عن مذاهب الصّحابة والتابعين

وتفْسيرهم؛ إلى ما يُخالف ذلك؛ كان مخطئًا في ذلك، بل مُبتدعًا، وإنْ كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلّته، وطرق الصواب.

ونحن نعلم أنّ القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلمُ بالحقّ الذي بعث الله به رسوله ، فمن خالف قولهم وفسّر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً، ومعلوم أن كل مَن خالف قولهم له شبهة يذكرها، إما عقلية وإما سمعية، كما هو مبسوط في موضعه» . مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية.

- فالواجب إذن: على مَنْ أراد فهم كتاب الله تعالى، الرجوع إلى كتب التفسير، التي جمعت كلام السلف؛ من أهل الفقه والفهم في كتاب الله، ويبدأ بالمختصر منها، قبل المطوّل، فالمختصر ككتب غريب القرآن، لابن قتيبة والهروي وغيرهما، والتفسير الميَسَّر لنُخْبَة من العلماء، وكلماتِ القرآن؛ للسّعدي، والهدى والبيان في كلماتِ القرآن، لكاتبه.

والمتوسط: كتفسير السّعدي: تيسير الكريم الرحمن، وأيْسر التفاسير؛ للشيخ الجزائري.

والمطوّل: كتفسير الطَّبري ؛ والبَغَوي؛ والسَّمعاني؛ وابن كثير؛ وتفسير القاسمي؛ وأضواء البيان للشنقيطي؛ وغيرها.

والتفسير المختصر يبين معاني القرآن الكريم، بعِبارةٍ وجيزة، وألفاظٍ قليلة.

فدراسة تفاسير أهل العلم، والإكثار من النظر والقراءة فيها، سبيلٌ إلى التدبّر الصحيح لكتاب الله عز وجل، وهم الذين فهموا القرآن وَفْق الأصول السابقة، وآتاهم اللهُ فهماً في القرآن، والقرآن لا تزال عجائبه تظهر، وإنَّ الفهمَ فيه يظلُّ أبداً ما دام القرآن في الأرض.

القاعدة الثانية:

وجوب تعلُّم لغة العرب، ومعرفة معاني ألفاظ الكلمات العربية، ومفردات اللغة، وكذلك لا بد أنْ يُعرف المقصود من الأسماء الشرعية، كالإيمان والإسلام، والكفر والنفاق، والبر والتقوى، والعلم واليقين، والصلاة والزكاة، والصوم، والحج والعمرة، والجهاد والرباط، والولاء والبراء، وغيرها من الأسماء الشرعية، وكذا سائر كلامِ العرب الذي نزلَ به القرآن الكريم.

وكذلك معرفة طرائق العرب في التعبير، وأساليبهم في الخطابة والبيان، فإنَّ القرآن عربي، وقد نزل بهذه اللغة، ووَفْق أساليب العرب في الكلام والبيان، واشتمل على مُعظم بلاغة العرب في كلامهم المنظوم والمنثور، فاسْتخدم التشبيه، وضَرْب الأمثال، والمدح والذَّم، والإغْراء والتنفير، والتقديم والتأخير للأغراض البيانية، وكذلك الحَذْف والإيجاز والإطْناب في مواضعه، والالتفات من الخِطاب إلى الغَيبة والعكس، والتعريف والتنكير، وغيرها من الأساليب البيانية.

فمَن لا يَعرف طرائق العرب في البيان، فإنه لا يستطيع أن يفرِّق مثلا: بين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونعبدك ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و نستعين بك..

وانظر إلى التحدِّي والإعجاز في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٢٣- ٢٤.

فقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: إنْ لم تأتوا بسورةٍ من مثله، وقد تظاهرتم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم، فتبين لكم بامتحانكم واختباركم، عجزكم وعَجزُ جميع الخلق عنه، وعلمتم أنه من عند الله ثم أقمتم على التكذيب به ؟!

وقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أي: لنْ تأتوا بسورة من مثله أبدًا، يشمل الحاضر والمستقبل، القريب والبعيد، وهكذا كان.

قال قتادة: لا تقدرون على ذلك، ولا تُطيقونه.

وكذلك في قوله سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٨.

فالخلاصة: يجب معرفة كلام العرب في معاني مفرداتها، وقواعدهم في الخطاب، وأساليبهم في البيان، وهذا ما تتضمَّنه اليوم معاجم اللغة، وكتب غريب القرآن، وعلم النَّحو والصَّرف، وعلم البلاغة.

فيجبُ على المسلم المُريد تدبُّر القرآن ؛ أنْ يكون على قدرٍ من هذه العلوم، وإلا جَهِل الأساس الذي يُفهم به القرآن الكريم.

القاعدة الثالثة:

دراسة سيرة الرسول ﷺ العطرة:

فدراسة سيرة الرسول ﷺ، ومعرفة حياته وأحواله، وأخلاقه وشمائله، وجهاده وعباداته ومعاملاته، والإلمام بأقواله وأفعاله ؛ مما يعين على فهم القرآن وتدبره، وذلك أنّ الرسول ﷺ قد فسَّر القرآن بقوله، وأقامه بعمله، وبينه بخُلقه ﷺ، كما أمره الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ٤٤.

فيقول الله تعالى له: وأنزلنا إليك - يا محمد - هذا القرآن تذكيراً للناس، وعظةً لهم ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لتعرّفهم ما أُنزل إليهم من ذلك ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: وليتذكروا بما فيه، ويعتبروا به، أي: بما أنزلنا إليك.

فمعرفةُ السُّنن القولية والعملية التي بيَّن الرسول ﷺ بها الكتاب العزيز، يُعين بلا شك على فهم الكتاب وتدبره، فإنَّ القرآن قد جعل الله بيانه لرسوله ﷺ ؛ كما سبق في قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ٤٤.

فالطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج والعمرة، وسائر العبادات المأمور بها في القرآن، لا يمكن معرفة أحكامها وحدودها، وشروطها وأركانها، ومواقيتها الزَّمانية والمكانية، وغير ذلك، إلا ببيان الرسول ﷺ لها، والرجوع إلى سُنته.

* وأيضا: فقد كان الرسول ﷺ، هو المثال الكامل للأمة الاسلامية، المثال الذي يحبه الله وتعالى ويريد من كلِّ مؤمن ومؤمنة أن يكون مقتدياً به، متبعاً له، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب: ٢١.

قال الحافظ ابن كثير: هذه الآية الكريمة أصلٌ كبيرٌ في التَّأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبْره ومُصابرته ومرابطته ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربّه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين؛ ولهذا

قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا، وتزلّزلوا واضْطربوا، في أمْرهم يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلا اقْتديتم به ؛ وتأسيتم بشَمائله؟ ولهذا قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾. انتهى.

ولَمَّا سُئِلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خُلُق الرسول ﷺ ؟ قالت: «كان خُلُقه القرآنَ» . رواه مسلم.

قال النووي رحمه الله تعالى: «معناه: العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدّب بآدابه، والاعتبار بأمثاله وقصصه، وتدبّره، وحسن تلاوته» . انتهى . «شرح مسلم» (٣/ ٢٦٨) .

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله:«يعني أنه كان يتأدَّب بآدابه؛ ويتخلق بأخلاقه، فما مَدَحه القرآن كان فيه رضاه، وما ذمّه القرآن كان فيه سخطه، وجاء في رواية عنها قالت: «كَانَ خُلُقُهُ القُرآنُ، يَرضَى لِرِضَاه، وَيَسخَطُ لِسَخَطِهِ» انتهى. «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٤٨) .

ولذلك فمحاولةُ تدبُّر القرآن الكريم بعيدًا عن دراسة

سيرة الرسول ﷺ، ستكون محاولة ناقصة ؟! لأنّ الرسول ﷺ هو المثل العملي والواقعي القائم بكتاب الله سبحانه وتعالى، والمهتدي به، والمتّبع له، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ الشورى: ٥٢ – ٥٣.

القاعدة الرابعةً:

معرفةُ أسبابِ النزول:

فمعرفة أسباب النزول مما يعين على فهم القرآن، ثم تدبّره، وذلك أنّ القرآن نزل منجَّمًا بحسب الوقائع والأحداث، في ثلاثٍ وعشرين سنة، كما هو معلوم.

ويعتبر علم أسباب النزول من علوم القرآن المهمة، التي لا يمكن الاستغناء عنها في تفسير كلام الله جل في علاه، وذاك لأنّ العلم بالسبب يُورث العلم بالمسبب، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في «مقدمة أصول التفسير».

وهو من الشروط المفروضة، والعلوم المطلوبة، لمن رام تفسير القرآن، كما بيَّنه غيرُ واحد من الأئمة الأعلام، كالعلامة الزَّرْكشي في «البرهان»، والحافظ السيوطي في «الإتقان».

ويقول العلامة أبو الحسن الواحدي؛ كما نقل عنه السيوطي في «الإتقان»: «لا يمكن تفسير الآية، دون الوقوف على قصَّتها، وبيان نزولها».

وقال الحافظ ابن دقيق العيد: « بيان سبب النزول، طريقٌ قويٌّ في فهم معاني القرآن» . الإتقان (١/ ٨٨) .

ولأهمية هذا العلم ؛ فقد كان محطَّ اهتمام وتأليف منذ القدم عند العلماء، من المحدثين والمفسرين، يقول الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى: أفرده بالتصنيف جماعة، أقدمهم علي بن المَدِينِي شيخ البخاري، ومن أشهرها كتاب الواحدي، على ما فيه من إعواز، وقد اختصره الجعبري، فحذف أسانيده، ولم يزد عليه شيئًا، وألَّف شيخ الإسلام أبو الفضل بن حجر كتابًا مات عنه مُسْوَدَّةً، فلم نقف عليه كاملاً، وقد ألفْتُ فيه كتابًا موجزًا محرَّرًا، لم يؤلَّف مثله في هذا النوع، سميته: «لباب النُّقول في أسباب النزول» . انتهى . الإتقان في علوم القرآن (١/ ٨٧) (١).

وأسباب النزول جاء بعضها إجابةً عن سؤال، كآيات

(١) – وكتاب الحافظ ابن حجر الذي أشار إليه الإمام السيوطي، هو « العجاب في بيان الأسباب»، وقد طبع لكنه غير كامل . ومن الكتب التي أُلِّفَت في هذا الموضوع: الصحيح المسند من أسباب النزول، للعلامة اليمني مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله، وكتاب: صحيح أسباب النزول، لإبراهيم محمد العلي ، وغيرها .

(ويسئلونك عن ..) في خمسة عشر موضعاً من القرآن.

أو تنبيهاً على خطأ حصل، كقول الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ الأنفال: ٦٧ .

وكقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ التوبة: ١١٣ .

أو ردًّا لشبهة قِيلت ؛ كالردود على شُبه مُنكري التوحيد؛ والبعث؛ والقيامة ؛ والرسالات وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ الفرقان: ٣٣.

وجاءت أسباب النزول كذلك: بياناً وتعليقًا على وقائع وأحداث ؛ فالآيات النازلة في بدرٍ وأُحُد والخندق، وسائر الغزوات التي نزل فيها قرآن، لا تفهم فهمًا سليمًا إلا بمعرفة وقائع هذه الغزوات، وإلا فكيف يَفهَم قارئٌ فهمًا صحيحًا قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ آل عمران: ١٣٩، ١٤٠، إلا إذا عَرَف ما أُصِيب به المسلمون يوم

أُحُد من القتل والجراح، ووقوف أبي سفيان شامخًا على رأس المسلمين بعد نهاية المعركة، يقول: « اعلُ هُبَل ! لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكمْ ؟! وقوله: أفيكم مُحمدٌ ؟ أفيكم أبُو بكر ؟ أفيكم عُمر ؟ أما هؤلاء، فقد قُتِلوا ..» الحديث، رواه أحمد والبخاري.

وكذلك لا تُفهم آيات سورة « النور» في شأن الإفْك، إلا بمعرفة سبب نزول هذه الآيات، وما قاله المنافقون في شأن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ومن الأمثلة كذلك: قوله تعالى في صدر سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ المجادلة: ١، فقد جاء أنها نزلت في خولة بنت حكيم رضي الله عنها، جاءت تشتكي إلى النبي ﷺ زوجها أوْس بن الصامت رضي الله عنه، الذي ظاهَرَها.

فالحُكم الذي ذكره الله تعالى في صدر هذه السورة، ليس خاصاً بخولة بنت ثعلبة وأوس ابن الصامت رضي الله عنهما كما هو معلوم، بل هي أحْكام للأمة جميعا، فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، كما قرره أهل الأصول.

وهكذا قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ الطلاق: ١.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ التحريم: ١.

هي أحكام للأمة جمعاء.

القاعدة الخامسة:

العكوف بعد ذلك على القرآن العظيم، والانقطاع إليه، للنظر والتأمُّل، والتفكر والتدبر:

فالعكوف على القرآن، والتفكر في آياته، وتدبر معانيه، والقيام به آناء الليل وأطراف النهار، كله مما يفتح للعبد معاني عظيمة في كتاب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة: ١١٩ .

وقال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ١٧٦.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل: ٤٤.

وقال تعالى حاثاً على التفكّر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ سبأ: ٤٦.

فإذا جلس الإنسان وحدَه، وتفكَّر في آياتِ الله المباركة، انْفتحَ له فيها بابٌ عظيم للفهم والعلم واليقين.

وقد أمر تعالى بالتفكّر والنظر، والأمر يفيد الوجوب كما يقرر الأصوليون.

ومن الآيات في الأمر بالنظر والتفكر:

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ يونس: ١٠١.

وقوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ ﴾ الأنعام: ٩٩.

وقوله: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ عبس: ٢٤.

وقوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ الطارق: ٥.

كما ورد الاستفهام الإنكاري أو ألتقريعي لمن يقرأ ولا يتفكر ؛ ولا ينظر ويتبصّر، مثل: ألم تر أولم يروا، ألم يروا، أولم ير؛ أولم ينظروا ؛أفلا ينظرون ...

- نذكر من ذلك: قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ

عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ النور: ٤٣.

وقوله: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ النور: ٧٩.

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴾ يس: ٧١-٧٣.

وقوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾ الأعراف (٨٥١).

وقوله: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾ ق (٦).

وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ الغاشية: ٧١-٩١٠.

وهي كثيرةٌ جدا في القرآن الكريم.

القَاعدة السّادسة:

تَثْوِيرُ القُرآن:

ومصطلح « تثوير القرآن» مـــن المصطلحات التي أطلقها الإمام الحَبر الرباني، فقيه الأمـــة العالم، صاحب النبي ﷺ: عبد الله بن مســـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك فيـــما رواه غير واحد عنه بإسناد صحيح قال: « إِذَا أَرَدْتُمُ الْعِلْمَ ؛ فَأَثِيرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ». وسنده صحيح موقوفا.

أخرجه الطبراني في الكبير (٨٦٦٥) وأبو عبيد في « فضائل القرآن» رقم (٨٠) وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٥).

وقد ورد بألفاظٍ متعددةٍ منها: «مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ».

وفي رواية: «ثَوِّرُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّ فيه عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ».

هذا الأثر الصحيح، يُبيّن لنا ما كان عليه حال السلف رضي الله عنهم مع كتاب الله تعالى، وكيف كانوا على علم جمّ بهذا القرآن العظيم، وممن يتلونه حقّ تلاوته، حتى قال الحَبْر ابن عباس رضي الله عنهما: لو أردتُ أنْ أمْليَ وِقْر بعيرٍ، على

الفاتحة، لفعلت . مقدمة « البُرْهان في علوم القرآن» (ص١٠١) .

كيف لا؟ وهم أهلُ القرآن، وأهل العلم بكتاب الله تعالى، الذي لا تَفنى عجائبه، ولا تنفد فوائده، ولا يَشبع منه العلماء، ولا يَخْلق عن كثرة الرّد، وهو حبل الله المَتين، والذِّكْر الحكيم، وهو الصّراط المستقيم؟

ومصطلح « تَثْوير القُرآن» اختلفت عبارات أهل العلم في بيانه، وإنْ اتفقت معانيها، فقال ابن عطية: «وتثوير القرآن: مناقشته ومدارسته، والبحث فيه، وهو ما يعرف به». المحرّر الوجيز: (١/ ٣).

ونقل القرطبي عن شَمِر قال: «تثوير القرآن: قراءته، ومُفاتَشة العلماء به» . التفسير: (١/ ٤٤٦).

وقال الغزالي إنه التفهُّم، وعبارته: «أنْ يستوضح كل آيةٍ ما يليق بها، إذْ القرآن مشتمل على ذكر صفات الله تعالى، وذكر أفعاله، وذكر أحوال أنبيائه عليهم السلام، وذكر أحوال المكذّبين، وكيف أُهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار» . الإحياء (١/ ٢٨٢).

ونقل الزركشي عن بعض العلماء أنَّ التثوير:«لَا يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ تَفْسِيرِ الظَّاهِرِ» . البرهان (٢/ ١٥٤).

ولو أضفنا لذلك ما في كلمة الإثارة، من التقليب والنظر في الوجوه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ الروم: ٩ . أي: حرثوها وقلبوها للزراعة.

فالمرء لن يفقه القرآن حقّ الفقه، حتى يُقلب النظر في القرآن ووجوهه المختلفة.

فاجتمع عندنا من معاني المصطلح: أنَّ تثوير القرآن؛ ضَربٌ من ضروب التدبّر لكتاب الله الكريم.

ويكون: بمدارسته وتقليب النظر فيه ؛ وذلك أنّ القرآن كما قيل: كالمسكِ المخْتوم، إذا أثرتَه ونقَّبت فيه، فاحَ عطره، وانتشر شَذَاه ؛ ولهذا قال السلف: « أثيروا القرآن».

وإثارته تكون أيضاً: بالاجتماع على قراءته، ومدارسته مع أهله العالمين به، وتشقيق السّؤال حول آياته.

وقد جاء الحثُّ على ذلك: كما في الحديث النبوي: «ما

اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كتابَ الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلتْ عليهم السَّكينة، وغَشِيتهم الرَّحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذَكرهم الله فيمَن عنده» . رواه أحمد والبخاري.

فالاجتماع على مُدارسة القرآن، وإثارة معانيه، واسْتخراج كنوزه، فيها الفوائد العظيمة، والفرائد العجيبة.

وما أقلّ هذه المجالس في أيامنا هذه ؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله!

القاعدة السابعة:

إنْزال القُرآن على حَالِ النَّاس، والواقع الحَاضر المُعاصر:

فالقرآن قول الله تعالى، العظيم الواسع، المجيد الذي لا تفنى عجائبه، بل هو متجدِّد، لا تزال تتحقَّق آياته كل يوم؛ لأنه ليس وصفًا لحَدَث مضى وانْتهى، وإنما هو حُكْم الله الحَكيم العليم، على الدُّنيا وأحْوالها وأهلها، والآخرة وأحوالها وأهلها، والأحْداث والوقائع، إلى قيام الساعة.

وقضية القرآن الأساسية هي: التوحيد والإيمان، وما يُضادها من الكفر والفسوق والعصيان، والموقف من الرّسالات، وهذه القضية لا يتغير فيها إلا الوجوه فقط، وإلا فالأحْداث والوقائع واحدة، بل والكلمات واحدة، كما قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ فصلت: ٤٣.

وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ الذاريات: ٥٢ - ٥٣.

فقصص الرسل والأنبياء متشابهة واحدة.

فكل رسول يأتي بالهُدى من عند ربّه إلى قومه، فيدعوهم إلى الله تعالى، فينقسم الناس إلى مؤمنٍ وكافر، ويقوم الصراع بين الحق والباطل، ويداول الله الأيام بينه وبين أعدائه، ثم تكون العاقبة للمتقين، بالنَّصر والتمْكين للمؤمنين، وهلاك الكافرين المُكذّبين الظالمين.

وهكذا الشأنُ مع كلِّ رسولٍ ونبي، وإنْ اختلفت أسماؤهم وأزمانُهم، وبلدانهم وأقوامهم، فقد اتَّحدَت دعوتهم عليهم الصلاة والسلام، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٩٢.

فالإيمان والتوحيد كان واحداً، وإنْ اختلفت أسماء النبيين والمؤمنين، لكنهم كانوا في كل عصرٍ ومصرٍ على قلبٍ واحدٍ، وأعمالٍ واحدة.

وكذلك تطابقت كلمات مناوئيهم ومخالفيهم، وتشابهت قلوبهم، كما قال الله عنهم: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة: ١١٨.

فقوله: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي: أشبهت قلوبُ مشركي العرب، قلوب مَن تقدّمهم في الكفر والعناد والعتو.

وهكذا وَصَف اللهُ للكفَّار في عصر الرسالة، هو وصفه للكفار اليوم، فقلوبهم وأقوالهم متشابهة، وكذلك أعمالهم.

وهكذا أشباه المنافقين يظهرون في كلِّ جيلٍ ودعوة، فأشباه عبد الله بن أُبي بن سَلُول، رأس المنافقين الذي مات في المدينة، كثيرون اليوم، عافانا الله من النفاق وأهله.

فقد وصف الله عز وجل المنافقين في القرآن بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ البقرة: ٨-١٠.

وإذا مضى الصحابة والتابعون وأتباعهم، فإنه يبقى أشباهُهم من أهل الإيمان والعلم والصالحون، في هذه الأمة إلى يوم الدّين، بالنظر إلى صفاتهم في كتاب الله تعالى،

كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ آل عمران: ١٦ - ١٧.

وكقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ الآيات من سورة الفرقان.

ولئن مضى بلال وعمار وياسر وسمية وصهيب رضي الله عنهم، وأصحاب رسول الله ﷺ، الذين كانوا يعذَّبون في سبيل الله، فهنالك أمثال لهم في الأرض اليوم، طالما بقيت فتنةٌ في الأرض، ويبقى وصفُ الله لهؤلاء في القرآن ماثلاً وقائمًا وواقعًا، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الحج: ٤٠.

ومع هذا؛ فيجب الحذرُ من إنزال القرآن على غيرِ منازله، ووضعه في غير مواضعه، فمَن أنزل آيات الكافرين والمشركين في المؤمنين؟! أو العكس؟! أو جعل المؤمنين الصالحين هم

المنافقين ؟! فقد ضلَّ ولم يهتدِ، ووضع آيات القرآن في غير مواضعها.

وهذا بابٌ عظيمٌ، ضلَّ فيه مَن ضلَّ، بجهل أو اتباع هوى، ممَّن حَجَب الله نور القرآن عن أبصارهم، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ النور: ٤٠.

وإنزالَ آيات القرآن منازلَها الصحيحة، وفقه الواقع على ضوء الكتاب العزيز، هو ثمرةُ القواعد السابقة جميعها، وهو ثمرة الهداية والتوفيق للحق والصواب، واتباع سبيل المؤمنين، والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

ففقه الواقع إنما يكون بعد العلم بالقرآن الكريم ؛ والسنة النبوية، وبعد الفقه بالشرع ؛ إذ الفقيه ينظر إلى واقع الناس، وما يدور في العالم، وما يأتي من أفكار ومن آراء، ويعرضها على العلم الشرعيِّ الصَّحيح؛ ليميز خيرها من شرِّها، وبدون العلم الشرعيِّ: فإنه لا يُميِّزُ بين الحقِّ والباطل، والهُدى والضَّلال، فالذي يشتغل بالأمور الثقافية، والأمور

الصَّحافيّة، والأمور السياسيّة، وليس عنده بصيرة في دينه: فإنّه يَضِلُّ بهذه الأمور؛ لأنَّ أكثر ما يدور فيها ضلالة، ودعاية للباطل، وزُخرُفٌ من القول وغرور، نسأل الله العافية والسَّلامة.

القاعدة الثامنة:

العمل بالقرآن الكريم:

فلا تُخالط بشاشةُ القُرآن قلبَ المسلم، إلا إذا أخذه للعلم والعمل جميعا، وهذا هو الإيمان التام، والمطلوب من عباد الله الصالحين المتقين، وهو حال النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عنهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ البقرة:١٢١.

عن ابن عباس: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يتبعونه حقَّ اتباعه. وكذا قال ابن مسعود.

وعن عمر بن الخطاب ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: إذا مرَّ بذكر الجنة ؛ سألَ اللهَ الجنة، وإذا مرَّ بذكر النار ؛ تعوّذ بالله من النار.

وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده، إنّ حق تلاوته أنْ يُحلّ حلاله؛ ويُحرم حرامه ؛ ويقرأه كما أنزله الله، ولا يُحرّف الكلمَ عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله.

وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشْكل عليهم إلى عالمه . (الطبري).

وأما مَن أخذَه للعلم فقط، دون العمل به ؟! فإنه لا يوفَّق إلى الإيمان وأعماله ومراتبه، ولا للفقه والفهم العميق للقرآن، بل يكون القرآن حجَّةً عليه، ويغلق قلبه دونه عياذًا بالله، قال ﷺ: « .. والقرآنُ حُجةٌ لك، أو عليك» . رواه مسلم.

فكم ممن قرؤوا القرآن ودَرَسوه وحَفِظوه، ولم تخالط بشاشة الإيمان به قلوبَهم، ولا رفعوا رأسًا به، وهؤلاء يكون القرآن حجَّة عليهم لا لهم؟!

بل كم من أوعيةٍ حَفِظت القرآنَ ؛ ولم تهتدِ به، ولم تنتفع، عياذًا بالله!

بل وكم مِن منافقين وكفَّار ومُلاحدة ؛ عَلِموا من آياته الحقَّ اليقين ؛ ثم كذَّبوا بها ؟! فازْدَادوا بها ضلالاً وانتكاساً؟ كما قال عز وجل ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الإسراء: ٨٢.

القاعدة التّاسعة:

التَّسليم لله عزَّ وجل عندَ متشابهه:

التَّسليم لله تعالى عند مُتشابه القرآن، وهو: ما يَلْتبِس معناه على بعض الناس، والعلم أنَّ القرآن كلَّه من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه نزل يُصدِّق بعضه بعضاً، ولا يُخالف بعضُه بعضاً، وأنه لا اختلاف بين آياته، ولا اضطراب في أحكامه، بل هو كما قال الله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود: ١.

والتسليم لله تعالى عند مُتشابه القُرآن، هو واجبُ المُؤمن الراسخ في العِلم ؛ تجاه كتابِ الله عزّ وجل، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ آل عمران: ٧ .

ووجود المُتشابِه فيه الذي لا يعلمُه إلا الله عز وجل؛ والرّاسخون في العلم، إنما هو لابتلاءِ الإيمان بالقرآن، ولتفاضُلِ أهلِ العلم فيه، وتفاوت درجاتهم بمعرفة آياته ؛ وفهمها.

وعلى المُؤمن إذا رأى المُتشابه من آياته، ولم يعلمها ؛ أنْ يقولَ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ حتى يقفَ على معناه.

فأهل العلم به يردُّون ما تشابه منه إلى مُحْكَمه، فيَعرفون معناه، وأما أهلُ الزَّيغ والغِواية والضلال، فإنهم كما قال تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾

آل عمران: ٧.

يقول سبحانه عنهم: يتركون المُحْكم البيِّن الواضح، ويَذْهبون إلى المُتشابه، ويَعكسون الأمر؟! ابتغاء فتنة مَنْ يَدعونهم لقولهم!!

وقوله: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: صَرْفه عن معناه الحق؛ الذي أراده الله تعالى، فيُضلوا الناس بذلك ؛ ويَضلوا هم بأنفسهم.

القَوَاعدُ والضَّوابِطُ المُتعَلِّقة بقَارئ القُرآن

وهذه مجموعة من القواعد ؛ المتعلّقة بقارئ القرآن نفْسِه:

١- لا بدَّ أن نعلم أولاً: أنّ القلبَ هو محلّ تلقي الوحي، فلا يتم الانتفاع بالقرآن العظيم ؛ إلا بتهيئته لقبول الآيات الكريمة، والانتفاع بما فيه، وهو كلام الله تعالى .

وقد بيّن جلّ وعلا في أكثر من موضع، أن القلب هو موضع تنزل رسالات الله، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٩٧.

وقال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤.

ولقد كان من حِكْمة الله تعالى، أنْ هيّأ الله عزّ وجلّ قلبَ النبي محمد ﷺ مُبكراً لتلقي الوحي، حيث شُقَّ صدْره وهو طفلٌ دون التمييز ؛ في بادية بني سَعد، وغُسل بماء زمزم، كما صحّ في الحديث.

فمن أحبّ أنْ يقع التدبر موقعه من قلبه، فعليه أنْ يُهيئ قلبه ويطهّره، لتلقي القرآن العظيم، وهذا يكون بعدة أمور، أهمها:

١ – اختيار الوقت المناسب للقراءة: ومن أفضلها: ساعات الليل، فهو موضع الثناء المتكرر في القرآن ؛ على قُرّاء القرآن الكريم ؛ والقائمين به، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ ﴾ الزمر(٩).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ المزمل(٦)..

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: كلّ ساعة من ساعات الليل ناشئة من الليل . وكذا قال مجاهد وعكرمة والضحاك وآخرون.

وقال سبحانه في مؤمني أهل الكتاب: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ آل عمران (١١٣) ولا بد من التنبّه: إنَّ هذه الميزة لا تتحقق إلا

لمن أخذ ما يكفيه من النوم، إذْ لا يُتصوّر التعقل والتدبر ؛ لمن كان يُغالب عينيه النوم، ولهذا فإنَّ من أحسن الأوقات للقراءة والتدبر ؛ وحفظ ما يرغبه الإنسان من العلم ؛ هو الوقت الذي يلي النوم الكافي، سواء في الليل أو النهار، فإذا كان هذا في الليل، فقد اجتمع في حقّه الفضلان.

ب - تَفريغُ القلب من الشَّواغل والصَّوارف التي تَحُول دون التفكّر والتدبر:

فلا ينتفع المسلم مِنْ قراءة القرآن، إذا كان قلبه مشغولاً بشيء، وعقله متعلقاً بأمرٍ من الأمور.

وإذا كان الإنسان يحتاج مثل هذا، في مقام القضاء بين الناس، ومقام الفتوى، ومقام تأمّل كلام العلماء والفُقهاء ؛ للفهم والمعرفة، فإنّه في كتاب الله تعالى أعظمُ وأوْلى ؛ وأوْضحُ وأجلى.

فكل شيءٍ لا يتمّ الانتفاع به، إلا بتحقق شُروطه، وانتفاءِ موانعه، ومن ذلك: تدبّر القرآن الكريم.

وقد أشار ربُّنا تعالى إلى التفرّغ للعلم والدراسة ؛ والدُّعوة والإرشاد ؛ وذلك في قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ التوبة: ١٢٢.

وقلَّما نقرأ في سيرة عالمٍ ربَّاني ؛ إلاَّ ونجد أنَّه ما رفع قدْره – بعد تجرده وإخْلاصه لله تعالى – إلاَّ انقطاعه عن دُنيا الناس؛ وشواغل الحياة، وتفرّغه للعلم بالقَدْر المطلوب، وإلزام النّفس بالإقْبال على الدّراسة والمذاكرة، والجدِّ والاجتهاد؛ والمثابرة على التلقّي حتَّى نضجتْ معارفه، واسْتوى إدْراكه وفهمه العِلمي.

– يقول الإمام ابن القيم رحمه في بيان ذلك: « إذا أردتَ الانتفاع بالقرآن ؛ فاجْمعْ قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به مَنْ تكلم به منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك، على لسان رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ

﴿ شَهِيدٌ ﴾ ق: ٣٧، وذلك أنَّ تمام التأثير لما كان موقوفاً على: مؤثر مقتض، ومحلٍ قابل، وشرطٍ لحصول الأثر، وانتفاء المانعِ الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجزِ لفظٍ وأبينه، وأَدَلِّه على المراد.

فقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدّمَ من أولِ السورةِ إلى ههنا، وهذا هو المؤثر.

وقوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحلُّ القابلُ، والمرادُ به: القلب الحي الذي يعقلُ عن الله ؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ يس: ٦٩-٧٠. أي: حيُّ القلب .

وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: وجَّه سمعَه، وأصغى حاسةَ سمعِهِ إلى ما يقالُ له، وهذا شرطُ التأثُّر بالكلام.

وقوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: شاهدُ القلبِ؛ حاضرٌ غيرُ غائب.

قال ابن قتيبة: استمَعَ كتابَ اللهِ وهو شاهدُ القلبِ والفهم، ليسَ بغافلٍ ولا ساهٍ.

وهو إشارةٌ إلى المانعِ من حصولِ التأثيرِ، وهو سهو القلبِ وغيبتُه عن تعقُّلِ ما يُقالُ له، والنظرِ فيه وتأمُّلِه.

فإذا حصلَ المؤثِّرُ، وهو: القُرآن.

والمَحَل القابل، وهو: القلب الحي.

ووجِدَ الشرطُ، وهو: الإصْغاء.

وانتفى المَانع، وهو: اشتغالُ القلب، وذُهوله عن معنى الخِطاب، وانصرافه عنه إلي شيءٍ آخر؛ حصل الأثر؛ وهو الانتفاع والتذكُّر».

« من كتاب الفوائد».

ج – أنْ يستشعر أنَّ اللهَ تعالى يُخاطبه به لا غيره، وأنه كلام الله تعالى إليه، فإنَّ هذا مِن أعظم ما يُعين على تدبر كتاب الله وفهمه، وتعظيم هذا الخطاب الإلهي المتوجِّه إليه حقّ تعظيمه.

يقول القرطبي مبنيا أهمية هذا المعنى، وذلك في مقدمة تفسيره (ص ٤):

« فأولُ ذلك: أنْ يستشعر المؤمن من فضل القرآن: أنه كلامُ رب العالمين، غير مخلوق، كلام مَنْ ليس كمثله شيءٌ، وصفةُ من ليس له شبيهٌ ولا ندّ، فهو من نور ذاته جلَّ وعزّ...، قال: ولولا أنّه سبحانه جعل في قلوب عباده من القوة على حَمْله ما جعله، ليتدبّروه وليعتبروا به، وليتذكَّروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداءِ حقوقه وفرائضه، لضعفتْ ولاندكّتْ بثقله، أو تَضَعْضعت له وأنَّى تطيقه، وهو يقول تعالى جَدّه، وقوله الحق: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر: ٢١، فأين قوةُ القلوب من قوة الجبال ؟!

ولكن الله تعالى رَزَق عبادَه من القُوةَ على حَمْله، ما شاءَ أنْ يرزقهم، فضلاً منه ورحمة ...».

فالعنايةُ بالشيء، والاهتمام له، والحفاوة به، فرعٌ عن معرفة قيمته وفضله، فمنْ لم يعرف فضل القرآن الكريم، ولم يقرَّ في قلبه تعظيمُ القرآن، وأنَّه هو أصل الهدى والصّلاح والسعادة، والشفاء والرحمة، وأنه لا حياة للقلوب إلا به، ولم يستشعر

عظيم مِنّة الله تعالى ونعمته ؛ بإنزاله على عباده ؛ لا يمكن أنْ يقع تدبره للقرآن ؛ على الوجه المطلوب والمرضي.

ولأجل هذا؛ تتابعت كلمات السلف رحمهم الله ؛ في بيان منزلة هذا القرآن الكريم، وصنّف العلماء والمحدّثون في «فضائل القرآن» كتباً كثيرة، ومن المفسرين من ضمّن مقدمة تفسيره ؛ بياناً مفصّلاً لذلك، تنويهاً بأهمية هذا الكتاب العظيم؛ ومزاياه المباركة.

د - استعمالُ الآداب الشَّرعية عند قراءةِ القرآن: وذلك بالاستعاذة والبسملة أولاً، مع تعقّل معناهما، واستحضار بركتهما، وذلك لأنَّ مِنْ أهم ما يحرص عليه الشيطان وأولياؤه؛ صَرفُ القارئ عن القرآن الكريم وآياته وفهمها وتدبّرها، فإنْ عجزوا؛ فبالتشويش عليه، والوسوسة في صدره، ولهذا أمر الله تعالى عباده بالاستعاذة عند قراءة القرآن، فقال تعالى:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

النحل: ٩٨- ٩٩.

وقد وردت السُّنة النبوية، بالبدء بالبَسْملة في أول السورة.

هـ - حُسْنُ الاستماعِ والإنْصات، مفتاح للفهم:

فالاستماع وإلقاء السمع لما يُتلى من كتاب الله تعالى، شرطٌ في حصول التأثر والتذكر، والانتفاع والتدبر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق (٣٧).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف (٢٠٤).

يقول ابن جرير: «أَصْغوا له سَمعكم ؛ لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه، وأَنْصتوا إليه ؛ لتعقلوه وتتدبروه، ولا تَلغوا فيه فلا تعقلوه».

قال سفيان بن عيينة: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر.

وقال وهب بن منبه: من أدب الاستماع: سُكُون الجوارح، وغضّ البصر، والإصغاء بالسّمع، وحضور العقل، والعزم على العمل.

وعلّق القرطبي قائلاً: «وذلك هو الاسْتماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويَغض طَرْفه، فلا يلهو قلبه بما يرى، ويَحصر عقله، فلا يُحدّث نفسه بشيءٍ سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أنْ يفهم فيعمل بما يفهم».

ويقول الإمام الآجري: «ثم إنَّ الله تعالى وَعَد لمن استمع إلى كلامه، فأحسنَ الأدبَ عند استماعه: بالاعتبار الجميل، ولزوم الواجب لاتباعه، والعمل به، يبشره منه بكل خير، ووعده على ذلك أفضل الثواب».

وقد أثنى الله تعالى على الجنّ بهذا الأدب، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ الأحقاف (٢٩).

فالإنصات: هو السكوتُ للاستماع، أي: فلما حَضَروا قراءة القرآن وتلاوته، ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اسْكتوا حتى نستمع حق الاستماع.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: لما قضى رسول الله ﷺ قراءته للقرآن وتلاوته، ولّوا منذرين، والتولية الانصراف، أي: لما تمت القراءة وفرغ منها، انصرفوا إلى قومهم منذرين، مُخوّفين لهم من عذاب الله تعالى.

يقول الآجري: «فكان حُسْنُ استماعهم، يبعثهم على التذكّر فيما لهم وما عليهم، وقد أخبرنا الله عن الجنّ في حُسن استماعهم للقرآن، واستجابتهم لما ندبهم إليه ثم رجعوا إلى قومهم، فوعظوهم بما سَمِعوا من القرآن، بأحسن ما يكون من الموعظة».

و- لا يتحقَّق التدبّر التام؛ إلا بقراءة القرآن بالترتيل والتمهل:

فلا بد لمن أراد تدبر القرآن الكريم، أنْ يقرأه على الوجه الشرعي الوارد في النصوص، وهذا من وجوه العظمة في هذا القرآن، أنّ الله تعالى لم يترك لعباده فرصةً للاجتهاد في معرفة كيفية قراءته، بل بيّن لهم ذلك أتمّ البيان وأوضحه.

ولنتأمل هذه النصوص:

١- قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ الإسراء (١٠٦).

فقوله ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أي: على مَهلٍ، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه.

٢- قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ الفرقان (٣٢).

فقوله ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ أي: أنزله الله تعالى بالتدريج والتمهّل.

٣- وقال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ المزمل: ٤.

قال الزجاج: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، بيِّنه تبييناً، والتبيين لا يتم بأنْ يعجل في القرآن، إنما يتم بأنْ يتبين جميع الحروف، ويوفّي حقَّها من الإشباع.

٤- وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ القيامة (١٦- ١٩).

يُوضِّح هذه الآيات ؛ أحاديث كثيرة، منها:

١ – حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سئل كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) يَمدّ ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم . رواه البخاري في فضائل القرآن.

٢ – وفيه أيضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ القيامة: ١٦ ؛ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يُحرّك به لسانه وشفتيه، فيشتد عليه، وكان يُعرف منه، فأنزل الله الآية التي في(لا أقسم بيوم القيامة) ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: علينا أن نجمعه في صدرك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾: فإذا أنزلناه فاستمع، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ علينا أنْ نبينه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل أطْرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى.

قال الحافظ ابن كثير: «وفيه دليل: على استحباب ترتيل القراءة، والتَّرسّل فيها، من غير هَذْرمة ولا سُرعة مفرطة،

بل بتأملٍ وتفكر».

٣- وعن حفصة رضي الله عنها قالت: «ما رأيتُ رسول الله ﷺصلَّى في سُبْحته قاعداً ؛ حتى كان قبل وفاته، فكان يصلي في سُبحته قاعداً، وكان يقرأ بالسورة فيرتّلُها، حتى تكونَ أطول من أطول منها». رواه أحمد ومسلم.

٤- عن أَبي وائِل قال: جاء رجُل إِلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إني لأقرأ المفصل في ركعة ! فقال عبد الله: «هذاً كهذ الشِّعْر، إن أقواما يقرءون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقعَ في القلب فرسخَ فيه نفع، إنَّ أفضل الصلاة الركوع والسجود، إني لأعلم النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن، سورتين في كل ركعة ...» . رواه مسلم.

معناه: أنّ الرجل أخبر بكثرة حفظه وإتقانه، فقال ابن مسعود له: تهذّه هذاً، وهو بتشديد الذال، وهو شدّة الإسراع، والإفراط في العجلة.

ففيه: النهي عن الهذّ، والحثّ على الترتيل والتدبر، وبه قال جمهور العلماء.

وقوله: « إنَّ أقواماً يقرءون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع» معناه: أنّ قوما ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب.

٥- عن عبد الله بن عَمرو رضي الله عنهما: عن النَّبِيّ ﷺ قَال: « يُقَال لِقَارِئِ الْقُرْآن اِقْرَأْ وارْقَ، ورَتِّلْ كما كُنْت تُرَتِّل فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتك عِنْد آخِر آيَة تَقْرَؤُهَا » . رواه أَبو داود والتِّرْمذي والنَّسَائي.

ز- تجنب موانع الفهم من البدع، والإصرار على المعاصي:

وقد شرط الله عزّ وجل الصلاح والإنابة، للفهم والتذكر والتدبر، فقال تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ق (٨) والمنيب: الخاضع الخائف من الله تعالى، الرجّاع إليه .

وكذا قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ غافر: ١٣.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الرعد: ١٦.

أي: أهل العقول الرزينة، والآراء الكاملة المتينة، الذين

وصفهم الله بعد ذلك بالاستقامة على دينه، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ الرعد: ٢٠-٢٢..

والذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة، ولابس الشهوات المحرّمة، فليس من ذوي الألباب؛ ولا تنكشف له أسرار الكتاب.

وقال تعالى مخبراً عن المنافقين وبلادتهم، وقلّة فهمهم، عند سماع الآيات: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ محمد(١٦).

والطابع هو الغلاف على القلب، المانع من الفهم، بسبب ما ارتكبوه من الذنوب والمخالفات.

يقول الزركشي: «واعْلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسْرار العلم من غيب المعرفة، وفي قلبه بدعةٌ، أو إصرارٌ على ذنب، أو في قلبه كِبْرٌ، أو هَوى، أو حُبُّ الدنيا، أو يكون غير متحقّق الإيمان».

وقد أوضح الشيخ أبو حامد الغزالي هذا، في كلام جيد له عن موانع الفهم، حيث يقول: « ثالثها: أنّ يكون مُصراً على ذنب، أو متصفاً بكِبْر، أو مبتلى في الجملة بهوىً في الدنيا مُطاع، فإنَّ ذلك سبب ظُلمة القلب وصدئه، وهو كالخَبَث على المرآة، فيمنع جلية الحق من أنْ يتجلى فيه، وهو أعظم حجابٍ للقلب، وبه حُجب الأكثرون.

وكلما كانت الشَّهواتُ أشدّ تراكماً، كلما كانت معاني الكلام أشدّ احتجاباً، وكلما خفّ عن القلب أثقال الدنيا، قَرُب تجلّي المعنى فيه.

فالقلب مثل المِرْآة، والشهوات مثل الصَّدأ، ومعاني القرآن مثل الصُور التي تتراءى في المِرْآة ...».

وبعـــد:

فاللهم إنا نسألُك بكلّ اسمٍ هو لك، سمَّيتَ به نفسك، أو أنزلتَه في كتابك، أو علَّمتَه أحدًا منْ خلقك، أو استأثرتَ به في عِلم الغيب عندك، أنْ تجعلَ القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء همومنا وأحزاننا، اللهم علِّمنا منه ما جَهِلنا، وذكِّرنا منه ما نُسِّينا، وارزقنا القيام به آناء الليل وأطراف النهار.

اللهم اجعلنا ممَّن ورَّثتَه القرآن علماً وعملاً، اللهم يا مُعلِّم القرآن علِّمنا إياه، اللهم يا منزلَ الكتاب، اجعلنا من أهله وخاصّته ؛ يا سميع الدُّعاء .

اللهم صلِّ وسلّم على عبدك ورسولك محمد، الذي قرأ باسمك، وعلَّم لك...

والحمد لله رب العالمين

في البَدْء والختام

الفهرس

- المقدمة ٥
- تمهيد ٢٣
- الفرق بين التدبر والتفسير ٢٤
- القاعدة الأولى ٢٦
- القاعدة الثانية ٤١
- القاعدة الثالثة ٤٤
- القاعدة الرابعة ٤٨
- القاعدة الخامسة ٥٣
- القاعدة السادسة ٥٦
- القاعدة السابعة ٦٠
- القاعدة الثامنة ٦٦
- القاعدة التاسعة ٦٨

القواعد والضوابط المتعلقة بقارئ القرآن ٧٠